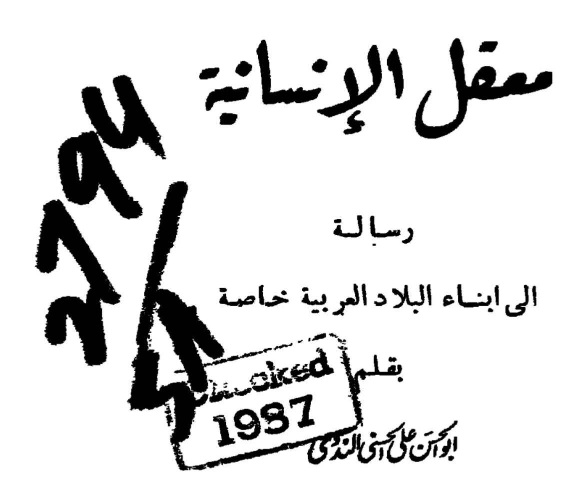
سلسله مطبوعات مكتبة الاسلام لكهنؤ

معقل الإنسانية



رسالة

الى ابناء البلاد العربية خاصة

بقلم

ابو الحسن علي الحسني الندوي

تطلب من

مكتبة الاسلام - لكناو

الهند

سلسله مطبوعات مكتبة الاسلام لكهنؤ

معقل الإنسانية

رسالة

الى ابناء البلاد العربية خاصة

بقلم

ابو الحسن علي الحسني الندوي

تطلب من

مكتبة الاسلام لكناو

- الهند

بســـم الله الـرّحمـــن الـرّحيـــم

معقل الانسانية

سرّح طرفك فى عالم القرن السادس المسيحى ولايفتننك الابنية الشامخة المشيدة والملابس الفاخرة المزخرفة وقناطير الذهب والفضة المقنطرة، فذلك ماتراه فى مجموع الصور القديمة و دارالاثار العتيقة، ولكن انظر هل ترى المعروة حياة فى ناحية من نواحى الشرق والغرب ؟ احبس نفسك واستمع، هل تحس لها عرقا ينبض وقلبا يخفق ؟

ترى الحياة بحراً يزدرد فيه الحوت الكبير الحوت الصغير، والعالم غابة يفترس فيها الاسود والكلاب والخنازير والذئاب الغنم والخروف، لقد انتصر الشر على الخير، والرذيلة على الفضيلة، والاهواء على العقل، والبطن على الروح، لقد تطاولت الارض السماء سفاهة، وصبت للفرقدين الحائل،

اصبحت الدنيا سوق المناداة بضائعها كل ملك و وزير و غنى و فقير يباعون نبيع السلع فهل ترى فى هذالمضمار فتى يربأ بنفسه

عن أن يباع بيع السلعة و ينادى: ان هذا الجو الفسيح لا يسع طيرانى، لقد كانت الحياة لاتقع منى بمكان فخلق الله لى حياة ثانية فكيف ابيع روحى وجوهر انسانيتى بكسر من كسور هذا العالم الصغير؟

لقد صارت للشعوب والبلاد ثم القبائل والعشائر ثم الاسر والبيوتات دوائر صغيرة واعتاد اصحاب الطموح والكبرياء أن يسكنوا فيها كالاقزام لايضيقون بها ذرعا، ولا يبغون عنها بدلا، ولا يرون في خارجها حياة ولايعرفون بشرية أوسع وعالماً أفسح، لقد أصبحت الحياة تعاطيا فى البيع والشراء وتسابقا فى المكيدة والخداع، أصبحت البشرية جثة هامدة ليس فيها حرارة روح ولاوعة قلب وسمو نفس،

لقد نبتت على أديم البشرية غابة كثيفة وحشائش شيطانية فيها آجام يعيش فيها السباع الضارية والحشرات السامة وفيها مستنقعات فيها انواع العلق، وفى الغابة كل سبع مخيف وكل طائر جارح وفى المستنقعات كل علق خبيث يعلق بالانسان ويمتص دمه، ولكن لم يكن فى هذاالعالم المزدحم بالبشر من يستحق أن يسمى بشراً، أما الرجال فقد لجؤا الى المغارات والاديار والكنائس واحتفظوا بدينهم وحياتهم او مكثوا فى تيار الحياة

يتلهون بالفلسفة و يتغنون بالشعر و ليس فى المدنية رجل جد يكافح أعداء المدنية و ينتصر للبشرية المظلومة ،

و اذا بهذه الجثة البشرية الهامدة يدب فيها دبيب الحياة ، و اذا بهذا الجسد الميت يهتز اهتزازا تتزلزل به أوكار الطيور التى قد عششت عليها و باضت و فرخت و هى تحسب انها ميتة لاحراك بها ، واذا ببيوت العناكب تنفتت و تتساقط ، و ذلك ما يعبر عنه أصحاب سير و الروايات فى لغتهم بارتجاج ايوان كسرى وخمود نار المجوس أم رائيت كيف تتناثر المبانى المجصصة و البروج المشيدة كأوراق الخريف بحركة من باطن الارض فيضطرب بها ظهر الارض فكيف لا تزلزل نظم كسرى و قيصر و ما بناه فراعنة العصر ببعثة النبى الاعظم صلّى الله عليه وسلم و طلوع فجر السعادة و العدل فى العالم ،

بعث محمد بن عبد الله الهاشمى صلّى الله عليه وسلم فى مكة قلب العالم المتمدن المعمور فأرسل صيحة دويت بها الغابات و جاوبتها الجبال و ذلك قوله « لا اله الا الله محمد رسول الله » كلام وجيز يحمل فى أثنائه عالم المعانى والحقائق ، و لقد شهد التاريخ بأن أسس الحياة الكاذبة المزورة و دعائم النظم المصنوعة الجائرة لم تتأثر ولم تتزلزل بشيئ مثل ما زلزلت فى هذه المرة بهذه الكلمة الوجيزة البسيطة وان الذهن البشرى لم يضرب أبدا قبل هذه ضربة موجعة فتألم بها هذا الذهن البليد و استشاط غضبا وجن

جنونه وقال « أجعل الالهة الها واحداً ان هذا لشئ عجاب »
واعتقد قادة هذه الحياة انه أمر مبيت وخطة مدبرة ضد هذه الحياة
السائدة وانه لابد من مكافحتها « وانطلق الملا منهم ان امشوا
واصبروا على آلهتكم ان هذا لشئ يراد » لقد كانت ضربة قاضية
على أفكار الحياة الخاطئة بأسرها يتأثر بها هيكل الحضارة
والسياسة بجميع أركانه،

لقد كانت - ولا تزال - هذه الكلمة تعنى أن هذه الحياة
ليست أجمة برية وحشية لم يعتن بها معتن بل هي حديقة منسقة
غرسها الله تعالى وتعهد تهذيبها وأصلاحها، وأن الانسان ريحانة
هذه الحديقة وروح الربيع وكيف تذبل هذه الريحانة وتدوسها
الاقدام او تخطفها الطير أو تهوى بها الريح ولم تؤد مهمتها ولم
تحل المحل اللائق بها ؟ فتقتضى فطرته ان يعبد الله وحده وتطالبه
نفسه السامية ان لا يقتنع بغير رضا الله، ويقتضى شرفه وكرامته
ان يجاهد فى هذا السبيل ويبذل ما عنده من عقل ومواهب
او مال ومكاسب وليس للانسان ان يتطأطأ من لجسد أو روح،
أو جبل ونهر أو شجر وحجر أو ثروة مثر أو جاه وجيه او سلطان
ملك، انه ليسمو على كل مخلوق ويتضاءل أمام خالقه، ان العالم
لم يخلق الا ليخدمه ويطيعه، ان الله سبحانه وتعالى قد أسجد
الملائكة الذين هم حملة القوى الكونية ليعلم الانسان أن هذا

الكون خاضع له متواضع، فيأمره و ينهاه و يستخدمه لمصالحه الطيبة و يسخره لمآربه العادلة ... (و ذلك قوله لا اله الا الله)،

ثم ان حياة الانسان هى السهم الوحيد الذى يملكه فاذا أصاب غرضه فيا له من سهم مصيب! و اذا طاش و أخطأ رميته فيا رزيئة رام ضيع سهمه الوحيد! و ان حياته لوسيلة كل سعادة في الدنيا و الآخرة وانها رأس بضاعة فأخلق به أن يكون ضنينا بهذه الحياة شديد الاحتفاظ بها و ان لا يضيعها في تجربة و اختبار و فى مخاطرة و قمار، و أن لا يخبط فيها خبط عشواء و لا يركب العمياء فانما هى حياته الوحيدة، و ما أقبح القمار فى رأس المال و ما أشده خطرا! فينبغى ان يسير موكب الحياة بدلالة خريت حاذق مجرب فان المفازة موحشة و قطاع الطريق كثير و ان يسير فى ضوء النبوءة و الوحى فان عالم القياس و التخمين ظلام فى ظلام ظلمات بعضها فوق بعض وان النبوة هى النور الوحيد فى هذه الظلمات المتراكمة و المنبع الوحيد لعلم الله المحكم وأمره المبرم و النبى هو المتصل بهذا المنبع و الواسطة بين الحق والخلق فى الهداية « ما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى » و و ان محمدا صلى الله عليه وسلم هو آخر المتصلين بهذا المنبع و خاتم الانبياء و المرسلين الذى نسخ الله به الاديان و نصبه اماما لكل زمان و مكان، و هو اجمعهم لصفات النبوة و الكمالات

البشرية ومعاني الحسن والاحسان، وهو المثل الكامل للبشر في كل عصر ومصر، وان دينه الذي جاء به هو رسالة كل عصر ودواء داء، فلا يتم الايمان بالله ولايمكن الوصول اليه الا بالايمان بالرسل عامة وبمحمد صلى الله عليه وسلم خاصة، وذلك قوله « محمد رسول الله »

وان الانسان ليحمل في رأسه طموحاً لا يشبع «وهمة في قلبه لا تقف، وروحاً في جسمه لا تني، وقلباً في جنبه لا يطمئن فلا يروي غلته ولا يشبع جوعته هذاالعالم الضيق المتثاقل وان طاعته وعصيانه لاوسع من ان يستوفي ثوابها أو عقابها في هذا العالم المحدود، فتلزم له حياة خالدة وعالم لا يعرف الثغور والاطراف ليست هذه الحياة الا قطرة من يم اذا قورنت بالحياة الاخرة وليس هذا العالم الاشبحا أذا قوبل بالعالم الاتي، وذلك هو الايمان بالبعث والحياة الاخرة الذي هو تمام الايمان، وثالث الاركان في الاديان،

لقد بلغ الذهن الانساني في القرن السادس المسيحي من الشلل الفكري وبلادة الحس غاية عجز معها عن أن يتخطى الماديات والمحسوسات وما يتصل بالجسم والبطن وان يعتقد لانسان اختصاصا بالنبوة والوحي، لقد كانت لهم مقائيس ورثوها عن

آبائهم فاذا رأوا بدعاً من البشر او مثالا جديداً للانسانية قاسوه بمقائيسهم ، لقد كانت بينهم رجال يرون انهم المنتهى فى العظمة الانسانية فاذا نبغ فيهم عبقرى او ظهر فيهم رسول قاسوه بهم ، لقد أفرغوا جهدهم ونثروا كنانة فكرهم فلم يروا الا ان محمداً صلى الله عليه وسلم اما طالب ثراء ورخاء او رائد سيادة وملك أو منتجع ترف ولهو ، واذا أنصفنا ذلك الجيل رأينا انه لم يبعد النجعة فانه لم يجرب طموحا فوق طموح الملوك وتطا ولا أكثر من تطاول الامراء والوزراء فأرسلوا اليه عتبة بن ربيعة فكلم محمدا صلى الله عليه وسلم ، وكان ماقاله تمثيلا صحيحا لذهن ذلك العصر وتعبيراً صادقا عن عواطفه ونفسيته قال : «يا ابن اخى ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الامر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تريد به شرفا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وان كنت انما تريد به ملكا ملكناك علينا »

وما أجاب به رسول الله صلى الله عليه وسلم كان تمثيلا صحيحا للنبوة وعرضا صادقا لموقف الامة الوليد فأثبت انه لايطمح الى ثراء ورخاء او شرف وترف ، أن نفسه العالية لتسمو عن هذه الخصائص سمو السماء على الارض انه لاتهمه راحته الذاتية ورقيه الشخصى انما يقلقه مستقبل البشر انه لا يصنع

لنفسه جنة شداد بل يريد أن يعيد الانسان المنفي الى الجنة الخالدة التى اعدت له، انه لا يسعى ليسود قبيلة أوأمة بل يريد ان يخرج الإنسان من حكم الانسان كائنا من كان ويدخله فى حكم سيده الذى هو رب السماوات والارض.

على هذ الاساس نهضت هذه الامة وبهذه الرسالة انتشرت فى العالم وان ما أجاب به رسل المسلمين فى مجالس رستم ويزدجرد يمثل تمثيلا صادقا لروحها ونزعتها قال ربعى بن عامر: ان الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا ومن جور الاديان الى عدل الاسلام، ولما أمكنهم ان يؤسسوا دولة على منهاج دينهم وأساس عقيدتهم نفذوا فعلا ما كانوا يدعون اليه غيرهم، فخرج الانسان من حكم الانسان الى حكم الله وعدله ولم يكن الحكم لحزب أو عشيرة بل كان الامر والنهى لله، يقول الخليفة الاول: «أطيعونى ما أطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لى عليكم» وقال عمر لعمرو بن العاص وقد ضرب ابنه رجلا من اهل مصر «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أحراراً أمهاتهم». وكان نائبهم على مملكة كبيرة كفارس يعيش فى عاصمتها القديمة كأدنى فرد من أفراد الامة حتى يتوهم الغريب أنه فقير أو أجير فيضع الحمل على رأسه فيحمله الى بيته، وكان أكبر غنى

منهم يعيش فى الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل فيستهين بملذات هذه الحياة الفانية ويدخر طيباته للحياة الخالدة،

كان وجود هذه الامة فى كل ناحية من نواحى العالم رمزاً لحقيقة غير الحقائق المادية واللذات الجسدية وكان كل فرد من أفراد هذه الامة يعلن للعالم وليداً وميتاً ان وراء القوى المادية قوة سماوية و وراء الحياة الفانية حياة خالدة. فاذا ولد وليد صرخ فى أذنه بهذه الحقيقة و اذا مات فارق الدنيا بهذه الشهادة، اذا ساد على هذالعالم جمود أشبه بالموت و غاص الناس فى بحر الحياة الى آذانهم واختفت كل حقيقة وراء الحقائق المادية اذا بصوت يدوى « حى على الصلاة حى على الفلاح » فينكسر طلسم العالم المادي و تتجلى الحقيقة الروحية و يجرى الناس وراء هذا الصوت وقد نفضوا أيديهم من أشغالهم و خروا أمام ربهم، واذا ضرب الليل رواقه و مد النوم أطنابه على هذالعالم الحى الصاخب فاذا هو مقبرة واسعة ليس بها داع ولا مجيب اذا بمعين الحياة ينصب فى وادى الموت كما ينبلج الصبح الصادق فى الليل الغاسق و تتلقى الانسانية الناعسة من مؤذن الفجر درساً فى الحياة و النشاط و الكدح ـ الكفاح، و الشكر و العبادة، واذا اغتر أحد بقوته وسلطانه وزها بكثرة ملائه و أعوانه وقال بلسان المقال أو بلسان الحال « أنا ربكم الاعلى » او « ما لكم من اله غيرى »

قام رجل متواضع على منصة عالية فى كل بقعة من بقاع مملكته أو نفوذه و نادى « الله أكبر الله أكبر » فينادى بحكم الله فى مملكته و يرغم أنف الاله الكاذب فى سلطانه

اذا هاجرت جالية مسلمة من رقعة من رقاع هذه الارض او أجليت منها لم يصب نظام المعيشة بشلل أو خلل، وظل الناس يتكسبون و يأكلون كما تأكل الانعام وظلت رحى الحياة تدور دورها الطبعى، ولكن روح ذالك المجتمع الانسانى يفارق جسده فيصير جثة هامدة لا حياة فيها ولا روح . كذلك كان فى أسبانيا و كذلك كان فى كل بقعة انسحب منها المسلمون او أجلاهم عنها اهلها، وهل اسبانيا الحاضرة الا مدنية بلا روح وحياة بلا مبدأ و أمة بغير رسالة للعالم ؟!

ان المؤمن وحده هو صاحب عاطفة فى هيكل العقل و المادة الذى لا يعبد فيه الا النفس و البطن، وهل الحياة الا بالعاطفة ؟ و هل الدنيا اذا ماتت العاطفة وغلب العقل وحكمت المادة الا سوق تجارة أو ميدان حرب ؟ فاذا ثار المؤمن للحق كسر طلاسم العقل وفك سلاسل الكون وحطم أصنام المادة و أملى على العالم ارادة الله فاذا هو مطيع خاضع واذا هو متواضع خاشع، وقلب تيار الحياة وغير وجه التاريخ وأرغم الكون على ان يسير سيرته .

حالت دجلة فى أسبيل المسلمين دون المدائن وكانت السنة كثيرة المدود ودجلة تقذف بالربد فجمع سعد الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال ألا انى قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم، فقالوا جميعا عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل، فندب الناس الى العبور وأذن لهم فى الاقتحام وقال: قولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليه وليظهرن دينه وليهزمن عدوه، ولا قوة الا بالله العلى العظيم، وتلاحق الناس فى دجلة وهم يتحدثون كما يتحدثون فى البر وطبقوا دجلة حتى ما يرى من الشاطئ شيئ(١)

نزل طارق بالاندلس والبحر وراءه والعدو أمامه والمستقبل رهيب والطريق مظلم والارض كفة حابل والعدد زهيد والمدد بعيد، فهزئ بأشباح المادة المخيفة وعاند العقل وأمر باحراق السفن التى ترجع به الى بلاده(٢) وعزم على الفتح وأيقن بالنصر، فهزم العدو وملك الجزيرة الخضراء للمسلمين

أراد عقبة بن نافع ان يتخذ مدينة فى افريقية يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد، فقصد موضع القيروان وكانت وحلة مشتبكة بها من

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ١٩٨ (٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٢١

أنواع الحيوان من السباع والحيات وغير ذلك فدعا الله وكان مستجاب الدعوة ثم نادى أيتها الحيات والسباع انا أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ارحلوا عنا فانا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه، فنظر الناس ذلك اليوم الى الدواب تحمل أولادها وتنتقل فرآه قبيل كثير من البربر فأسلموا (١)

خرج محمد بن قاسم وهو ابن سبع عشرة سنة لغزو الهند ومعه حفنة من الناس والبحار حائلة وبلاد العدو واسعة الاطراف وعرة المسالك لم يجربها العرب، فهزئ بالمعوّقين والمرهبين، وغلب الايمان القوة وغلب الروح المادة وانا بالهند من السند الى الملتان خاضعة للمسلمين،

ان العالم كله مدينة الاوهام والمؤمن وحده هو صاحب يقين لا يزول، وعقيدة لا تتحول، وهو في يقينه في عالم الاوهام كمصباح الراهب في الغابة المظلمة ومنارة النور في بحر الظلمات والجزيرة التي يأوي اليها اليائسون والطود الذي لا تزحزحه السيول ولا تزلزله العواصف وقد يتمسك بيقينه ولا يوافقه على ذلك أحد ولا يصدقه احد فلا تخور عزيمته ولا تلين عريكته ولا يرتاب ولا يتلدد والناس بين معارض ومنتقد ومطيع كاره او

---

(١) الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ٢٣٤

مخالف معتزل وهو لا يحفل بذلك ويمضى كالسيف حتى يهزم بقينه الف جند من الشك وينقشع سحاب الاوهام ويظهر يقينه مثل فلق الصبح

استعمل النبى صلّى الله عليه وسلّم اسامة بن زيد على جيش وأمره بالتوجه الى الشام، وتوفى النبى صلّى الله عليه وسلّم ولم يسر الجيش وارتدت العرب اما عامة أو خاصة من كل قبيلة وظهر النفاق واشرأبت يهود والنصرانية وبقى المسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم فقال الناس لابى بكر ان هولاء —يعنون جيش أسامة— جند المسلمين والعرب على ما ترى قد انتقضت بك فلا ينبغى أن تفرق جماعة المسلمين عنك، فقال أبوبكر والذى نفسى بيده لو ظننت ان السباع تختطفنى لانفذت جيش أسامة كما أمر النبى صلّى الله عليه وسلّم فخاطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة الى معسكره بالجرف فخرجوا كما أمرهم وحبس أبوبكر من بقى من تلك القبائل التى كانت لهم الهجرة فى ديارهم فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل، فلما خرج الجيش الى معسكرهم بالجرف وتكاملوا أرسل أسامة عمر بن الخطاب وكان معه فى جيشه الى ابى بكر يستأذنه ان يرجع بالناس وقال أن معى وجوه الناس وجلتهم ولا آمن على خليفة

رسول الله وحرم رسول الله والمسلمين ان يتخطفهم المشركون وقال من مع أسامة من الانصار لعمر بن الخطاب ان أبابكر خليفة رسول الله ألا فامض فابلغه عنا واطلب اليه ان يولى أمرنا أقدم سنامن أسامة، فخرج عمر بأمر أسامة الى ابى بكر فأخبره بما قال أسامة فقال لو خطفتنى الكلاب والذئاب لانفذته كما أمر به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولا أرد قضاءاً قضى به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولو لم يبق فى القرى غيرى لا نفذته، قال عمر: فان الانصار تطلب رجلا أقدم سنامن أسامة» فوثب أبوبكر وكان جالساً وأخذ بلحية عمر، وقال: ثكلتك أمك يا بن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلّم وتأمرنى أن أعزله،!

وسار أسامة وأوقع بقبائل من ناس قضاعة التى ارتدت وغنم وعاد، وكانت غيبته أربعين يوماً، وقيل سبعين وكان انفاذ جيش أسامة أعظم الامور نفعا للمسلمين فان العرب قالوا لولم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون ان يفعلوه (١)

ان العالم سوق لارحمة فيها ولا شفقة ولا مسامحة فيها ولا كرم، والمؤمن وحده هو الذى يؤثر على نفسه ولوكان به

(١) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ١٢٧— ١٢٨،

حصانة ويسامح مدينته وعدوه ويتنازل عن ملك واسع وعرض قريب طمعاً في الاجر ومحافظة على الكرم

تغلّب ملك كافر على دولة اسلامية في بلاد مالوه بالهند سنة ثلاث وعشرين وتسع مائة وخرج محمود شاه الخلجي صاحب مالوه من بلاده هارباً عنه الى كجرات فنهض السلطان مظفر الحليم - وكان الخلجي لا يزال في حرب معه وكانا متنافسين - من بلاده بعساكره ونزل على القلعة وشرع في المحاصرة وجد في أسباب الفتح ودخل القلعة عنوة ووضع السيف فيهم وكان آخر أمرهم انهم دخلوا مساكنهم وغلقوا الابواب وأشعلوها ناراً فأحترقوا وأهليهم وبلغ عدد القتلى من الكفرة تسعة عشر ألفا سوى من غلق بابه واحترق وسوى أتباعهم، فلما وصل السلطان الى دار سلطنة الخلجي التفت اليه وهنأه بالفتح ودعا بالبركة في ملكه وقال له بسم الله ادخلوها بسلام آمنين وعطف عنانه خارجاً من القلعة الى القباب، وهيأ الخلجي الضيافة ونزل الى مظفر شاه السلطان وسأله التشريف بالطلوع فأجابه، فلما فرغ من الضيافة دخل ه في الابنية التي هي من آثار أبيه وجده فأعجب بها وترحم عليهم ثم جلسا في جانب منه وشكره الخلجي وقال الحمد لله الذي أراني بهمتك ما كنت أتمناه بأعدائي ولم يبق لي الان أرب في شيئ من الدنيا، والسلطان أولى بالملك

منى وما كان له فهو لى فأسئلك قبول ذلك و للسلطان أن يقيم به من شاء، فالتفت السلطان اليه وقال له ان اول خطوة خطوتها الى هذه الجهة كانت لله تعالى والثانية كانت لنصرتك وقد تلتها فالله يتبارك المكفيه و عينك عليه، وسأله أركان دولته ان يستأثر بدولة الخلجى فالتفت الى محمود وقال له احفظ باب القلعة برجال لا يدعو أحداً يدخلها بعد نزولى حتى من ينتسب الى وانصرف الى بلاده (١)

العالم بلاد لا يعيش فيها الا من يحمل فى جنبه قلبا كانما قد من حجر، لا يعرف الحنان والرحمة ولا يعرف معنى الحب والايثار، والمؤمن وحده هو الذى يحمل فى جنبه قلبا يفيض حنانا ورحمةللبشر، ويجمع بين الرحمة والشدة والصلابة والرقة وشكيمة الاسد وحنان الام، تخلق بأخلاق الله فجمع بين الرأفة والعزة والجمال والجلال وتخلق باخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم فلا دغضب لنفسه حتى اذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيئ فبينما تراه في ساحة الجهاد كانه نار فى حطب اومنجل فى حقل ليس له عاطفة ولا قلب اذا به تراه فى الصلاة تهمل عيناه ويغلي صدره كالمرجل وتراه يرق للضعيف ويحنو على الارملة واليتيم، قد جمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل الا ان الاولى

(١) نزهة الخواطر للسيد عبد الحى الحسنى ج ٤

له سجية وطبيعة والثانية له وسيلة وذريعة فهو ينشد بلسان الحال « واني لحلو تعتري بني مرارة » لا يدع السماحة والكرم حتى مع العدو ولا يترك التمسك بالاخلاق الغالية حتى في ساحة القتال ،

هذا صلاح الدين الذي سار مثلا في شدته وجلادته ، تستغيث به امرأة اختطف ولدها فهي تبكي بكاء الثكلى ، فيرق لها بطل حطين ويطوف بها على القبائل والمنازل حتى تعرف ابنها وتضمه الى صدرها ، (١) و يهدي الى قرنه واعدى عدوه في العالم رتشرد الثلج والفواكه في مرضه (٢)

الناس من خوف الموت في الموت وأشد من الموت ، يعدون هذه الحياة رأس مالهم ومنتهى آمالهم فليس من الغريب ان يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، حتى اذا جاءه الموت خرج من الدنيا حزينا متلهفا على ما يفارقه كارها مستبشعا لما يستقبله

اما المؤمن فهو دائم الحنين الى ربه ، شديد الشوق إلى جنته ، لا يبالي أوقع عليه الموت أم على الموت وقع ، يستقبل الموت باسم الثغر جذل القلب فرحاً مستبشراً كانما هو خارج من السجن أو عائد الى الوطن ،

(١) (٢) الفتح القسي في الفتح القدسي لعماد الدين الكاتب

لما طعن جبار بن سلمى عامر بن فهيرة يوم بئر معونة فانفذه قال عامر: فزت ورب الكعبة (١) ولما ضرب ابن ملجم علي بن أبي طالب: قال فزت ورب الكعبة (٢)

قام ابو عبيدة في الناس في طاعون عمواس، فقال ايها الناس ان هذا الوجع رحمة ربكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وان أبا عبيدة سأل الله ان يقسم له منه حظه فطعن فمات، واستخلف على الناس معاذ بن جبل فقام خطيبا بعده فقال ايها الناس ان هذا الوجع رحمة ربكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وان معاذاً يسأل الله ان يقسم لآل معاذ حظهم فطعن ابنه عبد الرحمن فمات ثم قام فدعا به لنفسه فطعن في راحته فلقد كان يقبلها ثم يقول ما أحب لن لي بما فيك شيئا من الدنيا (٣)

وحضر بلالا الوفاة فقالت امرأته واحزناه قال بل واطرباه، غداً نلقى الاحبة : محمداوحزبه (٤) ، وكذلك روى عن عمار انه كان يقول ذلك عند وفاته (٥)

(١) طبقات ابن سعد (٢) كتاب المتفجعين لمحمود بن محمد بن الفضل (٣) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ٢١٦ (٤) الغزالي في الاحياء عن ابن ابي الدنيا (٥) الطبراني

المؤمن هو الذي يستطيع أن يفضل الفقر على الغنى والآخرة على الدنيا والنسيئة على النقد الحاضر والغيب على الشهود والدين على الحياة في كل دور من أدوار التاريخ مهما بلغت المادية أوجها.

ليس لقطر من الاقطار أن يمن على الاسلام بأنه فسح له في أرضه، وانما الفضل والمنة للاسلام على كل قطر فقد ألقى عليه درساً في التوحيد الذي لا يشوبه شرك، وحب الانسانية العامة واحترامها، ووسع افق خياله فصار يرى للحياة معنى غير معنى وللانسانية مستوى أرفع من مستواها القديم وعالماً أفسح من وكره الذي يعيش فيه، انه وضع عن كل أمة اصرها والاغلال التي كانت عليها وانقذها من العنصرية والجنسية والوطنية وعبادة الما والبيوتات والاشجار والاحجار والحيوانات والانهار والارواح والاجرام السماوية ومن الرهبنة الفاتكة بالمدنية والعزوبة القاطعة للنسل، هو الذي كسر طلسم الاوهام التي مضى عليها قرون وتعاقبت عليها أجيال، أطلق العقل من أساره، ورفع الحجر عن العلم ونسخ احتكار البيوتات للدين، ورسخ في الذهن منزلة العمل الفردي والسعي الشخصي واستقلال كل انسان بعمله ومسئوليته ومن الذي يستطيع ان ينكر أن الفضل في تقدم العالم وقطع مراحل المدنية والعلم انما يعود الى الاسلام؟ ومن الذي يجهل

اليوم؟ أن الفضل في تقدم اوربا وتخلصها من رق الاحبار والرهبان وسلاسل الكنيسة والحكم المطلق؛ وفي العكوف على العلوم الطبيعية والتجريبية، والخروج من الهمجية الى الحضارة انما يعود الى الاندلس الاسلامية التى ظلت قروناً طوالا مشعل الثقافة ومنبع العلم ومدرسة الفن والتهذيب في العصور المظلمة؟! ان كلمات العدل والمساواة والإنسانية والعالمية منتشرة ذائعة اليوم فيها بكل ناحية من نواحي المجتمع، وبارزة على كل صفحة من صفحات أدبها وكتابها، وخفيفة على لسان كل خطيب ومتكلم، ومن فيها يكابر في ان الاسلام هو الذي عرّف هذه الكلمات الى أهل هذه القارة وسعى في رواجها وذيوعها في بلاد لم تكن تعرف هذه الكلمات ومعانيها؟!

"حقيقة" إن المسلمين ليسوا نسلا او شعبا فحسب، وليس الاسلام "عادات" وتقاليد، وتراثاً يتوارثه الولد عن أبيه، انه دعوة ورسالة وحركة وعقيدة تقتضي الطامحين إليها، بأن يكون نظر المسلم أوسع من الماديات والمحسوسات، ومن عالم النفوس والبطون، ووطنه أوسع من "المنطقة" الصغيرة التى ولد فيها، وأن يكون قلبه عامراً بحب كل إنسان كائنا من كان، وان لا تكون الأوطان والانساب عائقا في سبيل حبه وعطفه وأن لا يكون همه منحصراً في نطاق الحياة الضيق، ويلزم كل من يدين "بهذا الدين" أن يحمل

للبشرية رسالة الروح والقلب والعاطفة والسياسة والاجتماع، ويملك قوة أخلاقية تراقبها في النور والظلام والوحدة والاجتماع والعجز والمقدرة، عنده أساس متين من العلم وبينات ومحكمات في المدنية، وحياة نبي كان ولا يزال المثل الكامل للبشر في مختلف ظروفه وأحواله ومختلف عصوره وأجياله، وكل أمة كان هذا شانها فهي حاجة كل عصر وقطر ومفزع الانسانية في كل ساعة عصيبة وكلما حلت بها أزمة عجزت عن حلها العقول البشرية والنظم الاجتماعية والسياسية،

اذا حجب الليل النهار، وهجمت جنود الهوى من كل جانب وهزمت الفضيلة والاخلاق، واذا أصبح الانسان ينحر أخاه لاجل فلس أو لاجل قرص، واذا أصبحت الشعوب الكبيرة تزدرد الشعوب الصغيرة في سبيل الجشع او الخيلاء، واذا صار وثن المال يعبد على قارعة الطريق، واذا ضحى بألوف من الناس على أنصاب الجنسية والوطنية، واذا حال الانسان بين الانسان ورزقه، اذا التهبت نار الشهوات وانطفأ نور القلب، اذا نسى الانسان الموت وعكف على الحياة يعبدها، اذا غلا الجماد والمعادن ورخص الانسان في سوق العالم فصارت المدن العامرة تسوى بها الارض وألوف من البشر يقتلون في دقائق وثوان بالقنبلة الذرية، اذا تغلبت الامم الاوربية على العالم وجعلته

بيت للمقامرين أو سوق الجزارين وعبثت بالانسانية عبث الوليد بجانب القرطاس وتلاعبت بالامم كالكرى، اذا ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدى الناس، هنالك يستصرخ هذا الكون المؤمن ويستغيث به وهنالك تناديه الانسانية باسم الاسلام الذى طلع كالصبح الصادق فى ظلام الليل الحالك وباسم محمد صلى الله عليه وسلم الذى أغاث الله به الانسانية في احتضارها وانتحارها وحفظ به مهجة الانسانية وأدال به من الجاهلية الجهلاء،

فهل يسمع المؤمن فى جزيرة العرب التى أشرقت منها شمس الاسلام وفى حواضر البلاد العربية فى آسيا وافريقية وفى الاقطار الاسلامية عامة صراخ الانسانية وعويلها فيهب من نومه العميق الطويل الذى مله العالم ويثب كالاسد وينقض كالصقر على أعداء الانسانية، انه بذلك لجدير وبحول الله على ذلك قدير، فهو معقل الانسانية ومنتهى الرجاء وأمين الله فى الارض وخليفة الانبياء

يدعون سياراً اذا احمر القنا
ولكل يوم كريهة سيار

